الضوابط والحدود في التربية السليمة

الحب وحده لا يكفي: وضع الحدود والضوابط للطفل

د. شفيق مصالحة

محاضر في كلية داڤيد يلين

هناك من قال ان للاهل ثلاث مهام رئيسة تجاه اطفالهم: اعطاء الطفل الحب والحنان والامان، ووضع الحدود والضوابط، وتوفير بيئه غنية تثري ميوله ومهاراته الذهنية والاجتماعية. حاجة الطفل الاساسية منذ لحظة ولادته هي بالحب والدفء لكي يشعر بالطمأنينة والامان. يشكل الخروج من رحم الام للعالم أزمة او صدمه على المستوى الفيزيولوجي وعلى المستوى النفسي وحضن الام وصدرها يشكلان المرفأ الذي يرسي به ليشعر بالامان التدريجي. عندما يكون التواصل العاطفي بين الطفل ووالديه متبادلا يشكل ذلك احد الاسس الهامة في النمو السليم. التبادل هنا يعني ان يشعر الاب والام انه حين يضم احدهم الطفل إلى حضنه يهدأ هو/ هي كما يهدأ الطفل تماما وبذلك يصبح إعطاء الحب حاجة مشتركة للاهل كما هي للطفل نفسه.

الحب وحده لا يكفي لتحقيق النمو الصحي والصحة النفسية السليمة. هناك حاجة بالحدود ايضا. اهمية الحدود والضوابط، وطرق وضعها والاخطاء الشائعة في رؤيا وممارسة وضع الحدود سوف تكون محور هذه المقالة.

لا اظن ان هناك عائلة او مربيًا لا يتساءل في ايامنا هذه، عن الوسائل الناجحة لوضع الضوابط للاطفال. الحقيقة ان غالبية الاهالي الذين اسمعهم في جلسات الاستشارة او المحاضرات يصوغون السؤال بالطريقة التالية: "هل الضرب وسيلة جيدة في التربية؟ ما هي الطريقة الفضلى لمعاقبة الطفل؟" "وما رأيك بالحرمان؟". اود ان اعقب هنا على ان اللغة التي نستعملها هامة جدا لفهم القضية التي نطرحها. انتقاء الكلمات والتعابير لا يأتي من فراغ، بل يعبر عن رؤيا وعن فهم محدد، وفي كثير من الحالات تفضح اللغة الفهم الخاطئ للمسألة المطروحة. فمثلا حين نسمع السؤال حول افضل الطرق لعقاب الطفل وكأننا نعني ان العقاب هدف نريد تحقيقه ونتساءل حول أفضل الطرق لتحقيق هذا الهدف، انا واثق ان المربي لا يقصد وضع العقاب ومعاناة الطفل كهدف يريد تحقيقه، وان الهدف الحقيقي هو تقويم سلوك الطفل.

مع ذلك تشير اللغة الى فهم معيّن ترعرع في اذهان الاهالي والمربين، وحسب هذا الفهم فان العقاب اعتبر الوسيلة الوحيدة لتقويم وتعديل سلوك الطفل، لدرجة ان الوسيلة اصبحت تحل محل الهدف. هكذا درج على لساننا السؤال حول افضل وسائل العقاب بدل السؤال حول طرق وضع الحدود والضوابط للطفل.

اذا اتفقنا ان العقاب هو وسيلة واحدة، بين وسائل متعدّدة، لضبط سلوك الطفل وتقويمه فيجب اذن

وضع العقاب بحجمه الطبيعي . من هذا المنطلق سوف احاول طرح العديد من الوسائل التي يمكن استعمالها لضبط سلوك الاطفال وكذلك سأطرح مو ضوع العقاب من كافة جوانبه ، بما في ذلك ابعاده والطرق البديلة له .

وقبل الدخول بتفاصيل قضية الحدود للطفل اود ان اؤكد ان الحدود ناجعه وفعاله فقط اذا كانت مدعومة بحب الاهل غير المشروط للطفل . يمنح القرب العاطفي المربي الاحساس بالثقة حين يفرض حدودا لا يرغبها الطفل . علاقة الحب تُسهِّل على الطفل قبول الحدود ، وتضمن له بان الحدود او العقاب لا ينبع من رفض وكراهيه بل من حرص وحماية .

أهمية الحدود والضوابط

اهم الطروحات التي وضعها علماء النفس من القرن العشرين بما فيهم فرويد وبياجيه هي ان الاسس النفسية والذهنية تتبلور لدى الطفل في السنوات الاولى لحياته . وانه كلما كبُر قلّت المرونه في مبنى شخصيته ، وقل احتمال التغيير في انماط سلوكه .

لهذا الطرح الذي وجد له دعم كبير في الدراسات والابحاث ، أبعاد كبيرة على تربية الاطفال وعلى علاقة الطفل مع اهله ومربيه . احد هذه الابعاد هو ان كافة الجهود والموارد يجب ان تبذل في السنوات الأولى لحياة الطفل وكل سنه تفوق باهميتها السنة التي تليها تماما كالجدار الذي يعتمد على الاساس ، فأي خلل في الصفوف الاولى يجعل انحرافه وعدم ثباته اكبر ، وامكانية تصحيحه تحتاج لجهد اكبر . البعد الآخر لهذا الطرح هو ان المربين يضطرون إلى فهم الطفل وممارسة التعامل معه قبل ان يتقن اللغة فهما ونطقًا ، الأمر الذي يزيد عملية التربية تعقيدًا .

تبدأ الحدود ، مثل الاسس الأخرى للنمو السليم ، في التكوين والتبلور مباشرة بعد الولاده . لحسن الحظ ، تكوينها يتشكل تلقائيا ، حين يشعر المولود الجديد بحاجة للحليب يبكي ، غالبا ما يمر بعض الوقت حتى تتواجد الام لتوفر له مطلبه ، وعندما يرضع الطفل وحين يشبع يبدأ بعض ثدي الام فتزيحه قليلا وتوقف عملية الرضاعة ، في كلتا الحالتين مثلاً يضطر الطفل تحمل الاحباط بانه لم ينل حاجته بالضبط كما يريد ولا في الوقت الذي يرغب ، تحمل هذه الاحباطات المتكرره في حياة الرضيع ، والطفل فيما بعد ، تكون في داخله القدرة على تحمل المواقف الحياتية التي بها لا يحصل على ما يتمناه بشكل كامل . وبما ان الحياه مليئة بالمواقف المحبطة ، علينا ممارسة القوة لتحمل الاحباط وتحمل الاحساس بالفشل في تحقيق امانينا ، لكي نستمر بالحياة وننجح في تحقيق ما يمكن تحقيقه والحصول على ما يمكن الحصول عليه بجد وكد وتعب .

الحدود تعني ان يكون باستطاعة المربي منع الطفل ممارسة اي سلوك فيه ضرر لنفسه او لغيره او تخريب اي غرض في محيطه . فمثلا يجب ان يملك الوالد القدرة والحزم لمنع الطفل من اللعب بسكين او ضرب طفل آخر او تخريب جهاز الراديو والتلفزيون . هذا الحد يحمي الطفل ، ويضمن سلامته الجسمية ، ويحميه على المستوى النفسي ايضا . الحماية النفسية هنا تعني حماية الطفل من غرائزه ودوافعه العدوانية . وضع الحد لهذه

الغرائز يمنح الطفل احساسًا بالسيطرة والطمأنينة والوضوح. وعكس ذلك اي عدم وضع الحدود يعني ان يكون الطفل مغمورًا بدوافع الغضب والعدوانية والعنف لدرجة الاحساس بالفوضى في داخله ومن ثم الخوف والاضطراب وعدم الامان. هذا المبدأ صحيح ليس فقط للمربي بل ايضا للمعالج النفسي مع الاطفال. حيث يتم علاج طفل يعاني من العنف؛ بناء على ذلك، على المعالج وضع الحدود بوضوح وثبات (Bixler, 1964).

حُب الاستطلاع ميزه ايجابية يمارسها الاطفال بداية من السنة الثانية لحياتهم، لكن كثيرًا ما يوصلهم حب الاستطلاع إلى خطر وان لم نحمهم سيشعرون بالخوف من استمرارية التجارب للاكتشاف، حيث انهم سيشعرون ان الخطر يكمن في كل شيء حولهم.

تراكم المواقف التي نضع من خلالها الحدود للطفل بهدف حمايته وحماية من حوله، تبني عنده القدرة على السيطرة على غرائزه، هذا الأمر في غاية الاهمية من اجل زيادة احتمال تأقلمه النفسي والاجتماعي. لو درسنا حالات السجناء والمجرمين في العالم، لوجدنا ان غالبيتهم وصلوا لما وصلوا اليه، نتيجة فشلهم في التحكم بغرائزهم وعدم قدرتهم على تحمل الاحباط فعملوا من اجل اشباع رغباتهم باقصر الطرق وباقلها حاجة للجهد.

تتكون القدرة على التحكم بالدوافع وبالذات العنف والجنس من خلال تراكمات عديدة من التجارب التي تميزت بفرض الحدود على سلوكات الطفل. اذن هذه مهارة تتبلور في مسار طويل وشاق والوصول إلى مرحلة التي فيها يتم تثبيت هذه الصفة في الشخصية، هو عبارة عن نجاح كبير. تخطر على بالي في هذا السياق قصة الراعي الذي حسده الناس على سهولة وبساطة عمله، فقالوا: "انت طوال اليوم تنعم بصوت الشبابه ولا هم يشغلك" قال الراعي . . «اخطأتم فعندي ثلاث مهام في غاية المشقة: الاولى ان احمي زرع الناس من غنمي، والثانية ان احمي غنمي من اذى الناس والثالثة والاكثر صعوبة، ان احمي غنمي من اذى نفسي".

هناك بعد آخر، قد لا يخطر على البال، وهو ان هناك فائدة من معرفة الطفل انه يقف امام رأي آخر. وقوفه امام الرأي المختلف، يمنحه الاحساس بوضوح اكبر بالنسبة لرأيه هو. بكلمات أخرى الموقف المخالف يشكل عنده هوية مستقلة لذاته. في هذا النوع من التجارب يحدد الطفل الحدود بينه وبين الآخرين ويعرف انه شخص منفصل، فقط في وجود حدود يعرف الطفل حدود نفسه ويلمس حدود قدراته ورغباته وامكاناته. الحدود ترسم خريطة الواقع فيعرف الطفل النتيجة المتوقعة لكل تصرف، وبذلك يفهم قوانين التعامل الانساني وقوانين الواقع والحياة. هذه هي البداية في مشوار طويل لتحقيق الاستقلالية Autonomy، ورسم معالم طبيعة العلاقات بينه وبين من حوله.

الحدود تخدم وظيفة اخرى يحتاجها الطفل حين يمر بمرحلة الانتقال من البيت للحضانة او لأي اطار خارج البيت. الطفل الذي يتيحون له تجنب عناء الحدود بالبيت هو الطفل الذي سيواجه وقتًا مريرًا في التعامل مع الاطفال والمربين في اطر خارج البيت. في الحضانة او الروضة هناك اطفال في جيله ولن يسمحوا له فرض قوانين اللعبة كما يريد فعندهم متطلباتهم المتناقضة لرغباته؛ مما يخلق الحاجة في القدرة على التحاور

والاصرار والتنازل. سيضطر هؤلاء الاطفال والمربين في الموقع إلى ممارسة الحدود وفرضها عليه وان لم تكن قد نمت عنده القدرة على التحمل وقبول الحدود فسيجد الحياة شاقة في هذا الاطار الجديد، مما يدفعه للرغبة بالتراجع والعودة لحضن الاهل والعائلة. هناك نسبة ليست قليلة من الاطفال الذين يواجهون صعوبات تأقلم عند خروجهم من البيت لمواجهة الحياة خارج حضن العائلة، في بعض الحالات ابعاد هذه المشكلة، ان لم تعالج، تلقي بظلها على حياة الطفل طيلة حياته. اذا لم يعرف الطفل الحدود، ولم يستطع ضبط تصرفاته، وملاءمة سلوكاته لمن حوله، حسب جيلهم وموقعهم، فسوف يكون طفلا غير مرغوب فيه لدرجة انه قد لا ترغب استضافته في بيتك. وهذا ثمن غالي يدفعه الطفل مقابل عجز اهله عن وضع الحدود له.

قد تسمع بعض الغرابة لو قلت ان الطفل يطلب الحدود احيانا بنفسه ويلوم اهله انهم قصّروا في هذه المهمة. في الوقت الذي فيه على الاهل وضع الحد ولم يضعوه يشعر الطفل بالغضب عليهم لانهم لم يحموه. اذكر مرة ان ابنتي الصغيرة في جيل الخامسة طلبت ان اسمح لها ان تفقس البيضة بالمقلى، وحين قلت لها ان في ذلك خطورة بسبب الزيت الساخن اصرّت وبكت، ونزلت اخيرًا عند رغبتها، وسرعان ما لمست نقطة زيت ساخنة يدها، فصاحت من الالم ولامتني بشدة لانني وافقتها على مطلبها وسمحت لها أن تعمل وفق إرادتها. وقالت "انت المسؤول ليش تخليني؟" وقلت لها فورًا انها على حق وانني كنت مخطئا بان قبلت ان تعمل ما ارادت، المسؤوليه هنا هي مسؤوليتي، كأب وكبالغ فواجبي ان اقيس خطورة الموقف واتخذ القرار واضع الحد حتى لو بكت وصرخت واحتجت. حين قررت السماح لها بخوض التجربة فكرت انني بذلك امنحها الاحساس بالقدرة على عمل مهمة مركبة يعملها الكبار، وبذلك اطور عندها الاحساس بالسيطرة، النتيجة كانت عكس ذلك حيث انها شعرت بالعجز والخوف وربما التراجع. النيّة كانت حسنة بالطبع، لكن النوايا لا تكفي فالطريق الى جهنم مرصعة بالنوايا الحسنة.

الآثار النفسية لغياب الحدود

من الصعب احيانا التنبؤ بابعاد واثار غياب الحدود على شخصية الطفل. الطفل الذي يعيش في جو عائلي او مدرسي عاجز عن وضع الحدود والضوابط يواجه صعوبة جدية في حياته المستقبلية. فالحدود تصقل شخصية تتحمل الصعاب والاحباطات، وشخصية قادرة على بذل الجهد من اجل تحقيق الاهداف قصيرة المدى وبعيدة المدى. اذكر ان عائلة جاءت للاستشارة النفسية مع طفل في العاشرة من عمره بشكوى انه يعاني من تبول لا ارادي ليلي وانه شديد العناد والعنف اتجاه اخواته. بهدف سهولة السرد دعونا نسمي هذا الطفل سفيان. قال الاهل ان سفيان الذكر الوحيد بين اربع اخوات وهو اوسطهم بترتيبه بالعائلة. الاب في اواسط الخمسينات والام في اواسط الثلاثينات. وضح لي تدريجيا ان الام ارتبطت بسفيان بشكل قوي جدًا وان الاب خرج من الصورة لدرجة انه ترك الامور بين سفيان وامه شأنهما دون اي تدخل من طرفه. كانت ام سفيان شديدة الخوف والقلق على سفيان لانها فقدت في حياتها اخ واخت واصبحَ الفقدان بالنسبة لها شبحا يلاحقها. لمس سفيان خوفها منذ الصغر وسرعان ما استعمل هذا الخوف كاداه من خلالها يحصل

على كل ما يريد وبذلك يمنع الام من اتخاذ اي موقف حازم يعارض رغباته . استعاد الاهل عدة أحداث بيّنت تحكم سفيان بجميع افراد العائلة دون اي رادع ، بما في ذلك اجبار اخواته على كتابة وظائفه وتحضير كل لوازمه من اكل وشرب ، وكان في البيت بموقع الآمر الناهي . في احدى الامسيات اصرّ على ان ترافقه العائلة لاحدى المطاعم في المدينة القريبة لقريته وفي الطريق فجأة اصر على ان يعود الجميع للبيت لانه غير رأيه ، وعاد الاب السائق ادراجه للبيت . حين رفضت احدى اخواته ان يرافقها بسيارة العائلة التي قادتها بنفسها القى بالحجارة على السيارة حتى كسر زجاج نافذة السيارة ، وعرضها للخطر الحقيقي .

الام كانت عاجزة امام تهديدات سفيان بان يخرج للشارع مع دراجته لتدهسه السيارة ، فترتعب خوفا وتعمل ما يطلب حتى انه اصر ان تعود من زيارة اقارب لها بعد وصولها بيتهم بخمس دقائق والا ، قال لها ، اعود بنفسي عن طريق الشارع الرئيسي . فهرعت خلفه منهية زيارتها ، خوفا ان يصيبه مكروه .

الاب كان عاجزا ايضا امام هذه العلاقة الحامية من جهة الام ، فعرف ان اي تدخل له سوف يسبب الصراع مع الام ، فزاد من اشغاله خارج البيت ، وكان موفقا باعماله ، وترك امور البيت لمن فيه .

شعر الاهل ان وضع سفيان يتفاقم ، ويتراجع ، حيث ان التبول اصبح حدثا ليليا وان علاقاته الاجتماعية تقلصت لدرجة انه ليس عنده صاحب واحد ، وان تحصيله المدرسي اصبح متدنيا جدا رغم انه ولد ذكي . كذلك عنفه في البيت اصبح يشكل خطرًا على اخواته واحيانا على نفسه . هذه الصورة اضطرتهم إلى اللجوء للعلاج النفسي واستشارة الاخصائي . من الواضح ان هذا الوضع كان وليد تراكمات من المواقف التي لم توضع بها الحدود الحازمه لسفيان من قبل الام والاب . الام لم تضع الحدود بسبب مخاوفها غير الواقعية والتي تستمد جذورها من تاريخ حياتها هي ، والاب وجد نفسه خارج الائتلاف الذي شكلته الام مع ابنها . اما سفيان فوجد نفسه فريسة لغرائزه التي تأخذه ذات اليمين وذات الشمال بدون اي سيطرة ، خوفه من العنف في داخله جعله يتراجع امام ابناء جيله ويستخدمه بدون سيطرة في البيت ، القلق الشديد في داخله كان سببا للتبول الليلي ومسببا لقلة التركيز والذاكره ، الأمر الذي جعله يتراجع في تحصيله المدرسي .

امام المعالج هنا كانت عدة مهام أهمها توحيد روابط الاب والام ليصبحوا ائتلافا قويا يشكل بديلا لائتلاف الام مع سفيان . التحالف الطبيعي هو بين الاب والام وليس بين الوالد والولد ضد الوالد الآخر . وبالطبع كانت امام المعالج مهمة كسب ثقة سفيان ليساعده التخلص من المأزق الذي وجد نفسه فيه داخل هذه العائلة ليصبح انسانا مستقلا ، يملك الثقة بنفسه ويشعر بالقوة الحقيقية في داخله ليواجه العالم بأمان .

وظيفة اخرى للعلاج كانت مساعدة سفيان على التحمل والصبر وزيادة قدرته على تأجيل اشباع رغباته . تحقيق هذا الهدف كان يجب ان يتم من خلال قدرة المعالج على الاحتواء بحيث يوفر لسفيان الحب والتقبل من جهة ، وتوفير الحدود الواضحة من جهة أخرى . علاج الاطفال غالبا ما يتم من خلال اللعب . فمثلا حين لعب سفيان مع المعالج لعبة الشطرنج كان واضحا ان بالاضافة لمتعة اللعب كان على سفيان المشاركة في ترتيب اللعبة واعادتها لمكانها وهذا المبدأ كان صحيحًا بالنسبة لكافة الالعاب وكافة الادوات في الغرفة . قضية ترتيب الالعاب هي مثال للمبدأ الذي يحوي المتعة من جهة والالتزام والحدود من الجهة الأخرى .

واذكر هذا المبدأ هنا لان لا مجال لشرح كافة الاساليب والمحاور العلاجية في سياق هذه المقالة.

القضايا النفسية والسلوكية التي تبدو لاول وهلة بأنها بسيطة ان كشفنا عنها سرعان ما تتجلى لنا صورة في غاية التركيب، جذورها تعود ليس فقط لعلاقة الاب والام بل ايضا لطفولة كل منهما ولديناميكية عائلاتهم. الفهم العميق للاعراض النفسية يقودنا لعالم مركب يحتاج لادوات دقيقة تفوق دقة الاجهزة المستعملة في غرف العمليات.

ربما من اهم الاسس التي تضمن وضع الحدود بالشكل السليم هو ان يكون المربي نفسه نموذجًا للقيم التي يود نقلها للطفل. الحقيقة ان غالبية طرق التعامل مع الناس ومع امور الحياة يكتسبها الطفل من مشاهدته لطرق التعامل المتبعة في عائلته وبالذات من قبل والديه. هذا المبدأ ينسجم مع ما جاء في نظرية Bandura المعروفة بالنظرية السلوكية الذهنية (Bandura & Mcdonald, 1963). الطفل لا يكتسب الامور حقيقة من خلال الشرح والموعظة بل من خلال المشاهدة والتقمص، بالذات للشخصيات الهامة في حياته مثل والديه ومعلميه. يراقب الطفل ويتعلم ويجرب ويرى نتائج اعماله. من العوامل التي تجعل الطفل يعيش في صراع هو عندما يدرك تناقضًا في الرسائل التي تصله. الرسالة المتناقضة تزيد البلبلة في داخله. دعونا نتخيل طفلا في جيل سنتين من دافع الدعابة يقول له اهله واخوته ان يضرب كل ما يسبب له الألم فاذا صدم بكرسي وبكى من الالم يقولون له "دي دّي" اي اضربها وبهذا يشعر انه اخذ ثأره فيبتسم وينسى الالم وينتقل هذا المبدأ ليضرب اخوته الاكبر منه ايضا بشيء من اللعب والضحك والدلال لانه صغير وغالبا لا يؤلم بكفه الصغيرة، لكن لا يدري هذا الطفل لماذا يصبح مبدأ الضرب غير مرغوب فيه حين يستعمله مع طفل آخر في جيله او اصغر منه. الرسالة التي تصله تصبح متناقضة حين يضرب يضحكون له احيانًا ويمنعوه، يغضبون عليه احيانًا أخرى. يشجعونه ويشجبون تصرفه على نفس السلوك في آن واحد. لاي رسالة عليه ان يستجيب؟

تخطر ببالي صورة اخرى شائعة تمثل تناقضا في الرسالة التي تصل الطفل بما يتعلق بالعنف وتلتبس عليه الحدود. المربي الذي يضرب الطفل لانه ضرب طفلا آخرًا. هذا الحدث يشكل غاية التناقض يضربه لانه يضرب. المربي يقوم بنفسه بالعمل الذي ينهى عنه. منطقيا ضرب المربي للطفل هو افظع من ضرب الطفل للطفل لان في الحالة الاولى القوي يضرب الضعيف، ومن يمثل القيم يعمل عكس القيم التي يحاول فرضها. المنطق الذي اعرضه هنا بالطبع يتناقض مع المنطق الذي استندت عليه اساليب التربية السابقة التي افترضت ان احترام الكبير والانصياع لاوامره امر واجب فقط من منطلق النيه الحسنة للمربي بانه يضرب الطفل لمصلحة الطفل.

أساليب خاصة في وضع الحدود

لو دققنا النظر والسمع لوجدنا ما لا نهاية من المواقف التي ينوي بها الكبار وضع الحدود للاطفال يفشلون، ليس لان الصغار اشقياء بل لان الوسائل التي يستخدمها الكبار لهذا الهدف غير فعاله، بل وغالبًا هدامه، اي

تخدم عكس الهدف المرجو. اذكر حالة عامر (اسم مستعار) وهو طفل في الثانية عشرة من عمره والاصغر في عائلته. طلب اهله العلاج لقلقهم على حالته النفسية بعد ان ظهرت عنده سلوكات وصفوها بانها غريبة حيث ألح على امه اعادة اي جملة قالتها لمرات متكررة لدرجة اعيائها حتى حين لم تقل شيئا اصر على انه سمعها تقول. وايضا الح ان تعيد ما ظن انها قالت. وفي السنة الاخيرة لم يستطع البقاء معها في غرفة واحدة وحده، فحين تدخل الغرفة يخرج منها، تراجع في دروسه بشكل ملحوظ، انعزل اجتماعيا وبدأ يصحو من النوم بصعوبة في الصباح ويتأخر عن المدرسة. قبل مقابلته في عيادتي كان قد تم فحصه من قبل اخصائيين آخرين ومنهم من وصف له دواء ضد الاكتئاب لمعالجة الاعراض المذكورة. بعض التفاصيل المتعلقة بطفولة عامر تشير الى ان امه "ضمته الى حضنها" وتعلقت به بشكل قوي جدا لدرجة انه نام في فراش والديه حتى جيل العاشرة. شعر الاب ان الام تستبدله بابنها وتضع الابن بالفراش بدلا عن ابيه.

هذا الارتباط بين عامر وامه اخرج الاب من الصورة وكون شرخًا في علاقة الاب والام. وربما استعمل الطفل هنا، كأداة تعبر بها الام عن غضبها ورفضها للاب. على أي حال غضب الاب ظهر بالعنف الجسدي اتجاه الطفل، لاي حجة يرتئيها. في إحدى الجلسات العلاجية اشتكت الام من تصرف الاب اتجاه عامر، حيث انه فجر له كرة القدم المحببة عليه بالسكين دون علم عامر، وذلك عقابا له على انه شتم ابن عمه خلال خلاف بينهما. بكلمات اخرى اعتبر الاب ان عقاب ابنه بهذا الاسلوب يخدم وضع الحد لسلوك ابنه غير المرغوب وهو الشتم. الاب نفذ عقابه بالخفية عن عامر وحين سأل عامر امه عن الكرة، طلبت منه ان يسأل اباه، وهنا احتج الاب في الجلسة على ان رد فعل الام كان خاطئا. حينها طرحت تساؤلاً حول الطرف العنيف في هذا الحدث الابن ام الاب؟ الاب هنا استعمل السكين ليقتل مشاعر ابنه الذي أحب الكرة، والتي كانت اداة اللعب الوحيدة المتوفرة له في ظل الظروف الصعبة للحارة التي سكنوا فيها. مرارة العقاب كانت اكبر لانه كان بمثابة طعنة من الخلف بالنسبة لعامر. الغضب والحقد الطبيعي الذي شعر به عامر في هذا الموقف، سيظهر من خلال زيادة حدة الاعراض النفسية التي يشكو منها. احساسي كانسان وكأخصائي كان بان على الاب الاعتذار للابن والاعتراف امامه بانه ارتكب خطأً في حقه. اعتذار الاب هنا يمنح الطفل مصداقية لاحاسيس الغضب والنقمة التي شعر بها وبذلك نؤكد للطفل انه غاضب ليس لانه طفل عاق بل لان الواقع الزمه بذلك، ونعلمه انه من المسموح ان نرى خطأنا ونعترف به ونتأسف للضحية او لمن تضرر من الخطأ الذي نرتكبه. الاعتراف هنا هو قيمة تربوية بحد ذاتها. طلبي من الاب بالاعتذار امام الابن جاء بعد ان ناقشت ابعاد الحدث مع الاب والام على انفراد وحاولت توضيح الدواعي الحقيقية لتصرف الاب، والتي كانت اعمق وابعد من مجرد شتم عامر لابن عمه. حين بدأ الاب بالاعتذار قال "بس يا بابا انت اجبرتني اعمل هيك، اكم مرّة قلت لك ما تشتم؟"، هنا احسست انا بصعوبة اكبر فالمعتدي يتهم الضحية ويحملها مسؤولية خطأه. عامر اصبح هو المذنب الذي اثار اعصاب ابيه ودفعه لطعن الكرة.

سلوك الاب كاداة لضبط تصرف الابن في هذا الحدث شمل عدّة اخطاء. اولها ان لا علاقة بين سلوك الابن الذي شتم ابن عمه وبين اتلاف الاب للكرة التي احبها ابنه. ثانيا عملية العقاب كانت طعنة من الخلف

ولم تتم بشكل واضح ومباشر . ثالثا عمل الاب كان افظع وابشع من عمل الابن . الاب الذي كان من المفروض ان يشكل مثلاً للتعامل الافضل مع مشاعر الغضب : ان يشتم الابن بالكلمات تعبيرا عن غضبه امر طبيعي لكن ان يقوم الاب بعمل عنيف وعدواني اتجاه كرة الابن لهو أمر اشد وانكى وهو بمثابة تعبير عن العجز في التعامل مع مشاعر الغضب بالشكل السليم . واخيرا بالطبع لوم الاب للابن وكأنه هو ، اي الابن ، هو المسؤول عن عمل الاب غير السليم فهذا أمر في غاية الخطورة من الناحية التربوية والنفسية .

أنا واثق ان هذا الحدث هو واحد من آلاف الاحداث التي مرّت على عامر في الأثني عشر عامًا من حياته ، وان تراكمات هذه الاحداث هي التي شكلت عالمه النفسي المتميز بصعوبات جدية تحد من تأقلمه ونجاحه . انا واثق ايضا ان نوايا الاهل سليمة وانهم يحبون ابنهم لكن الحب وحده لا يكفي ووضع الضوابط والحدود فن دقيق ان لم يتقن فالعواقب وخيمة . فهم ديناميكية العائلة الكامنة خلف الاعراض التي يشكو منها الطفل ، غاية تتطلب رؤية ما وراء بعين ثالثة ، وسمع صوت آخر باذن ثالثة .

الحرمان :

ادرك جزء من المربين ان الضرب وسيلة تربوية فاشلة ، وجزء آخر ادرك ان استعمالها ضد الاطفال امر غير قانوني . هذا الادراك جعل المربين يشعرون بانهم مجردون من اي وسيلة تربوية يضبطون بها الاطفال . فاذا اعتبر الضرب غير مناسب تربويا ووضع العصا عاد يحاسب عليه القانون فكيف نردع ابناءنا عن السلوك غير السوي وكيف نوجههم لما فيه الخير؟ الحرمان اداة ضبط قديمة العهد ، لكن ربما زاد استعمالها كوسيلة لوضع الحدود وكبديل للضرب حين اصبح هناك شبه اجماع على ابعاد ممارسته .

عندي انطباع ان كل عائلة تستعمل الحرمان اتجاه الاطفال كعقاب وكأداة للضبط ولكن بدرجات متفاوته . انطباعي ايضا ان المدارس واطر التعليم والتربية كافة ترى في الحرمان اداه شرعية للاستخدام .

الحرمان الممارس نجده بعدّة أشكال اهمها الحرمان العاطفي والحرمان المادي .

الحرمان العاطفي : يعني ان يقوم المربي بمقاطعة الطفل كعقاب له . مقاطعة الطفل من حيث الكلام حيث يقول له " ما تحكي معي " او باللغة العامية " انا محوربك " وتطول المقاطعة دقائق او ساعات واحيانا أيامًا متتالية . التعابير الدارجة في هذا المجال كثيرة ومنها " ما بحبك ما تحكي معي " ، " انت مش ابني روح دور على ام ثانية " وما الى ذلك . كُلما تكرر مثل هذا الحرمان وكلما طال زمنه كانت اضراره أكبر .

انعكاسات الحرمان العاطفي على الطفل متعددة . فالطفل يشعر بالرفض أي أنه طفل غير محبوب ، واذا كان الاب او الام لا يحبه ، فبالطبع لن يكون انسانا على وجه الارض يستطيع حبه . يعتبر الرفض العاطفي من اصعب الاحاسيس التي يشعر بها الطفل ، وان رافقته هذه الاحاسيس فستعيق تكيفه الاجتماعي بدرجة كبيرة فسوف يعمل المستحيل لاسترضاء الناس وشراء حبهم عوضا عن الحب المفقود .

حين يسمع الطفل ان المربي يقاطعه يخاف ان تكون هذه المقاطعة دائمة ، وانه لن يعود ليتقبله مرة أخرى . الطفل بالذات في جيل مبكر لا يدرك الزمن بشكل دقيق ، وقد لا يدرك ان المقاطعة والرفض مؤقتان ، وحتى

الكبار الذين يدركون ذهنيا مفهوم الزمن، الفراق والمقاطعة لمن نحب تكون صعبة لدرجة ان الدقائق تحس وكأنها ساعات. وربما أهم الابعاد السلبية للحرمان العاطفي هو ايقان الطفل بان حب الوالد له مشروط، وانه ليس مفهوما ضمنا. الحب المشروط يجعل الطفل في امتحان وقلق دائم حول ضمان ثبات واستمرارية الحب، وكأن الحب مرهون بسلوكه وليس بشخصه. وكأن حب الوالد لولده ليس مضمونًا بحكم انه ابنه او ابنته بل يتعلق بالسلوك الذي يرغبه الوالد.

الحرمان العاطفي ايضا يضع الطفل في موقع الاذلال والضعف. من الواضح ان حاجة الطفل لأهله كبيرة وتعلقه بهم قضية حياة او موت بالنسبة له. فالانسان من المخلوقات القليلة التي ان لم ترع مولودها مات، واستقلالية المولود مسار طويل يحتاج سنوات عديدة. استعمال الوالد لهذا التعلق كأداه للتهديد والسيطرة، امر يشبه التعذيب النفسي للطفل. عندما تهدد الطفل بقطع العلاقة معه يشعر بالعجز والخوف مما ينقله للاحساس بالغضب والنقمة. حتى ولو انصاع لاوامر المربي ومطالبه بشكل آني فان مشاعر الغضب ستظهر باعراض غير سوية قد يصعب فهم مصادرها فيما بعد.

الحرمان المادي هو ايضاً عقاب شائع، وقد يتساوى مدى استعماله في العائلات بدون علاقة بمستواها المادي او الثقافي. افترض انه كل ما زادت امكانيات العائلة المادية اصبح استعمالهم للمادة كاداة للتحفيز او كاداه للعقاب أكبر. الحرمان المادي يلتقي بابعاده السلبية مع كل ما ذكر بالنسبة للحرمان العاطفي لكن هناك بعض الخصائص اود الوقوف عندها. يستعمل الاهل الحرمان المادي باشكال عديدة فهم يحرمون الطفل مصروفه اليومي كعقاب له على سلوك غير مرغوب فيه. أحيانا كثيرة يحرمونه مصروفه بسبب فشل في امتحان او شهادة مدرسية غير مرضٍ عنها او عدم القيام بواجباته المدرسية اليومية. الشكل الآخر للحرمان المادي هو منع الطفل من اللعب خارج البيت، او من رحلة مدرسية، او مشوار مع العائلة، او مصادرة لعبة يحبها مثل كرة قدم. حرمان الطفل من مسلسل تلفزيوني يحبه ايضا يعتبر نوعا من الحرمان.

برأيي، وقد يعارضني الرأي اخصائيون آخرون، ان الحرمان المادي غير ناجع على المدى البعيد ونتائجه وابعاده سلبية على شخصية الطفل. هناك لا منطق في استعماله خاصة إذا علمنا أنه لا توجد علاقة بين سلوك الطفل والامر الذي نحرمه منه. فما العلاقة بين المصروف اليومي ونتيجة الامتحان او الدراسة؟ المصروف اليومي الذي يجب ان يتجاوب مع حاجة الطفل الاساسية مثل شراء عصير او وجبة خفيفة، يعد حقا أساسيًا للطفل لا حق لاحد سلبه في أي ظرف من الظروف. ومطلب الأهل والمدرسين من الطفل بان يقوم بواجباته المدرسية وببذل اقصى الجهود لتحسين تحصيله هو مطلب شرعي ويجب ان يكون في غاية الوضوح، بدون ان يرتبط لا بتهديد ولا بحرمان.

في الحالات التي وصلتني للاستشارة، ادركت وادرك الاهل ان عواقب الحرمان المادي كانت وخيمة. فالطفل الذي حرم من المصروف اسبوعا كاملاً سرق، وطفل آخر كذب على صاحب الدكان ليحصل على حاجته، وآخر تورّط في ديون من اصدقائه كلفته خسارة العديد من هذه الصداقات. اصبح تفكير الطفل متمحورًا في كيفية الحصول على حاجته المادية ومشاعره منصبة بالغضب والنقمة. هكذا ايضا حصل مع

طفل حرم من الرحلة المدرسية، عاقب اهله من خلال تراجع دراسي أكبر، ومشاكل سلوكية عنيفة.

قد يجد بعض المربين علاقة بين مشاهدة التلفزيون وعمل الواجبات المدرسية وحقيقة ان هناك علاقة بين الاثنين. لكن هناك اختلاف بين استعمال سلطة الاهل وحزمهم من أجل وضع نظام لوقت الطفل بعد المدرسة وبايام الاجازة وبين حرمان الطفل من مشاهدة برنامج تلفزيوني يحبه كعقاب له على تصرف لا يرغبه الاهل. حين يضع الاهل نظاما لوقت الطفل يجب ان يراعي هذا النظام رغبات وحاجات الطفل ايضا، ليضم البرنامج المتفق عليه اوقاتا للدراسة وكذلك اوقاتا اخرى للبرامج والالعاب التي يحبها. الطفل بحاجة لضبط بما يتعلق بالزامه عمل واجباته المدرسية وغير المدرسية والثانية لا تقل أهمية عن الاولى.

الحقيقة ان الحرمان المادي اداه "تربوية" يستعملها الاهل ضد المراهقين ايضا وهناك الامور قد تصبح أكثر تعقيدا لأن إمكانية ضبط المراهق أصعب ولذلك يكون الصراع أشد. في كثير من الحالات يحاول الاهل حرمان المراهق من شيء يحبه كعقاب، فيخترق العقاب فيزيدون من الحرمان فيقاوم بالرفض والعصيان أكثر وتبدأ هناك حلقة من الصعب إيجاد المخرج منها. الحرمان كأداه للضغط يستعملها ايضاً الكبار ضد الكبار في الحياة الزوجية فالزوج يحرم زوجته من زيارة أهلها أحيانًا عقابا لها على "عدم حسن السلوك"، وقد يقتر عليها المصروف، وقد يعاقب أحدهم الآخر من خلال الهجر في المضاجع! في كل هذه الحالات الحرمان يولد الغضب والرغبة بالانتقام.

الحرمان المادي كعقاب والثواب المادي كمكافأة يحملان في طياتهما أبعادًا فيها شيء من الخطورة. وأهم هذه الأبعاد جعل العلاقات ما بين المربي والطفل علاقة مادية تحكمها المكافأة والمردود المادي لأي سلوك او تصرف. البعد او المدلول هو متساوي بمعزل عن حجم المكافأة، فاذا تكون نمط من المردود المادي لكل سلوك مرغوب فيصبح هذا النمط يحكم كل السلوكات والمواقف، فاذا ذهب الولد للدكان لشراء أي غرض نطلبه منه فيحق له مكافأة، وان قام بعمل واجباته المدرسية يحصل على مكافأة، وان كانت شهادته جيدة نال جائزة أكبر، وهكذا دواليك. بطبيعة الحال بشكل تدريجي تزيد العلاوة وتتصاعد أحجام الجوائز بحيث تصبح مصدرًا للضغط في العلاقة. البعد السلبي الآخر للمبدأ المادي في الثواب والعقاب هو جعل السلوك أهم من الشخص. بكلمات أخرى ان حصل الطفل على علامة عالية بالامتحان فاز بالجائزة والتي هي تعبير عن الرضا والحب، تكون لحب الاهل بالعلامات العالية وليست بحبهم لابنهم. وغالبا ما يشعر الطفل ويوقن بشكل تدريجي انهم لا يحبونه لذاته ولكن يحبونه لتحصيله وان هبط التحصيل هبط الحب والتقدير والاحترام. أذكر إحدى العائلات التي طلبت الاستشارة بشكل فوري وعاجل لأنهم اكتشفوا ان ابنهم الذي كان على عتبة الامتحانات النهائية للمرحلة الثانوية، أصيب بقلق شديد أدى به لعدم القدرة على الجلوس الدائم وقت الامتحان والحاجة للذهاب للحمام كل خمس دقائق. خاف الاهل ان يؤثر ذلك في تحصيله في الامتحانات النهائية واصابتهم حالة من الذعر والهلع. عبروا عن خوفهم ان ينهار كل ما بنوه خلال كل السنوات السابقة، حيث جعلوا سعادة العائلة وتعاستها ترتبط بالنجاح المدرسي لابنهم البكر. في إحدى الصفوف الابتدائية قفزوه صفا أي انتقل من الصف الرابع للصف السادس بايمان انه ذكي ويتفوق على أبناء

جيله . الاحساس انهم كانوا مسرعين جدا، وكأنهم في سباق للوصول الى هدف من الصعب تحديده . قد يكون ان يصبح الابن طبيبا او مهندسًا . وحين يصبح طبيبا ربما يحقق لهم طموحًا في داخلهم . طموح عجزوا عن تحقيقه هم ويريدون تحقيقه من خلال الابن .

وقع الشاب هنا تحت عبء وثقل هذه المسؤولية . فخَرَّ صريعا من شدة الحمل وثقله، وأصبح في دوامة وقلق شديدين . في إحدى الجلسات عبر عن إحساسه الداخلي وقال بأن أهله لا يحبونه حقيقة، هم أحبوا تحصيله وشهاداته، وانه يصبح لا يساوي شيئا ان لم يحقق لهم مطالبهم .

البديل بالطبع لهذا النمط والتوجه ان نحب ابناءنا لذاتهم وبمعزل عن تحصيلهم . نحن نريد لهم النجاح والحياة الموفقة ويجب ان نتجند لمساعدتهم لتحقيق ذلك لأنفسهم، لكن يجب الحذر اذا كان حبنا لهم يرتبط بهدف ان يحققوا لنا امرا في أنفسنا لم نحققه لذاتنا بانفسنا . نحن نحب ان يكون ابننا سعيداً بما يعمل، يحقق طموحاته ويأتي بقدراته الى حيز التنفيذ . وان واجه صعوبة نتجند لفهم هذه الصعوبة وعمل المستطاع لمساعدته التغلب عليها ليمضي قدما في تحقيق ذاته . قال روجرز (1961) وهو أحد اصحاب النظريات في علم النفس ان شمس الغروب جميلة بالذات لان احدا لم يلونها، لم يطلب منها أحد ان تكون كما يريد . العطاء المادي لابنائنا هو واجب علينا أولا، ولا بأس ان استخدمناه ايضا كوسيلة للتعبير عن حبنا واهتمامنا بهم . فحين يكون الابن جائعا وتطبخ له أكلا يحبه فهو يشعر باهتمامك وحرصك على متعته . وحين يرغب بشراء دراجة او أي لعبه اخرى وتشتري له هذه اللعبة فهو يفرح ويشعر بحبك له وهذه أمور لها قيمتها ووزنها التربوي .

طرحي هو ان هذا العطاء يجب ان يكون متحررًا من أي ارتباط او أي اشتراط . تشتري الهدية لابنك لانه ابنك وتحبه، وتصر على أن يمتنع عن عمل شيء معين او تفرض ان يعمل أمر معينا لانه ابنك وتحرص عليه وتريد مصلحته . اذكر ان طلبت مني المحكمة ان اعطي رأيي كخبير بالنسبة لقضية طفل ورد تساؤل حول حضانته، وكان الخيار اما أن يعيش مع خالته بعد فقدان امه او ان يعيش مع أبيه . حين سألته قال أريد العيش مع أبي وسألته لماذا " أبيك " وأجابني بكل بساطه : " لأنه أبي " وأدهشني الجواب البسيط الذي يحمل المعنى الحقيقي لعلاقة الطفل بأهله . بنفس المنطق أحضر هدية لابني لانه ابني وليس لأي غاية اخرى .

هناك بعض المواقف التي يظهر بها الحد بشكل دقيق بين الحرمان وفرض الحدود . فاحيانا يفقد الطفل السيطرة على سلوكه فيضرب ويكب الطعام ويحاول كسر الأشياء من حوله لدرجة انه يشكل خطرًا على نفسه أو على غيره وان لم يشكل خطرا حقيقيا يصبح من الصعب احتوائه ضمن الاطار الذي يتواجد فيه . في مثل هذه الحالات يمكن ان نجبره على الدخول لغرفته لفترة زمنية نحددها بانها تكون كافية حتى يهدأ، ويتحكم بتصرفاته . وقد نطلب منه ان يعلمنا انه هدأ وانه قادر على الخروج والتصرف بسيطرة . ان اثبت ذلك عادت الامور لمجاريها وان عاد واظهر انه لم يتغير يمكن إعادته لغرفته بمطلب واضح انه سيخرج فقط ان هدأ فعلاً . مثل هذا النمط من العقاب فيه عنصر من عناصر الحرمان لكنه ليس حرمانا بالضبط . الطفل يحرم من البقاء في المكان الذي فيه لم يستطع السيطرة على سلوكه ومزاجه وتصرفاته وتعدى بذلك حقوق الآخرين وربما

سلامتهم. لكن في غرفته هو حر باستعمال كل الوسائل التي بحوزته حتى يهدأ ومنها تخته وكرسيه وطاولته وكتبه والعابه. الحد هنا، بان في أي وقت الانسان يفقد السيطرة والهدوء يجب ان يعمل لتهدئة نفسه، لكن لا يحق له الاساءة للآخرين بالضجة او بالايذاء الجسمي.

في أساس أي سلوك على المربي فهم الدوافع الحقيقية ونقاشها مع الطفل. ما عرضته هو وسيلة التصرف في قمة الظرف المزعج، لكن بعد الهدوء يجب الحوار والتفاهم وان تكرر سلوك غير مرغوب من قبل الطفل فواجب الاهل او المربي محاولة فهم الدوافع والاسباب. الحوار والتفكير العميق وسائل جيدة لخدمة هذا الهدف. لا أقصد هنا بحبس الطفل في غرفته كعقاب على سلوك معين مثل تحصيل مدرسي، او خروج من البيت بدون اذن او أي سلوك آخر وانما الهدف من إدخال الطفل لغرفته هو ليواجه التحدي في السيطرة على نفسه وثورة أعصابه وحين ينجح في هذه المهمة يشعر بالقوة والسيطرة. ان يتعلم الانسان كيف يرتب الثوران في داخله ويتحكم بالهيجان في مشاعره فهذا امر هام في الحياة، وان فعل ذلك من خلال عمل بناء مثل الخلو لنفسه والانشغال بالقراءة او الرسم او الكتابة أو عمل أي شيء بناء في غرفته وادواته، فيحقق بذلك هدفًا يخدمه كل ما تكرر موقف مشابه في مدار حياته.

كيف نضع الحدود اذن؟

اذا كان الضرب بأشكاله والحرمان بانواعه غير مجدٍ والحدود والضوابط أمور هامة في التربية السليمة فما العمل اذن؟ كيف نضع الحدود للطفل؟

في وضع الحدود يجب مراعاة العديد من الامور اوّلها الحزم. يعرف الطفل عادة ويقرأ في عيون المربي اذا كان يقصد ما يقول وحازما في موقفه ورأيه، او انه قابل للتراجع بضغط معين عادة يعرفه ويدركه الطفل. قراءة الطفل لمدى حزم المربي يعتمد على تجارب سابقة تبدأ عادة في السنة الاولى من حياة الطفل. المربي الحازم هو الذي لا يتراجع عن موقفه ورأيه تحت ضغوط الطفل وفقط لعدم قدرته على الصمود امام هذه الضغوط. تراجع المربي عن رأيه أمر وارد بحكم عنصر المرونة، لكن هناك فرق واضح بين التنازل او التراجع بسبب الخوف من ضغوط وتهديد الطفل، وبين التراجع بسبب اعتبارات تتعلق بقدرة الطفل على الاقناع، او رؤية المنطق الآخر الذي لم يدركه المربي حين اتخذ القرار. المربي الذي يتراجع عن موقفه امام تهديد الطفل لن يستطيع ان يكون حازما، وسيكون دائما في موقف ضعف، وعاجزًا عن وضع الحدود. يجد المربون أنفسهم، بعد تراجعات كثيرة، في موقف غاضب على الطفل وعلى أنفسهم لدرجة انهم ينفجرون في بعض الأحيان بالغضب وربما بالضرب. قلت ان الحزم في وضع الحدود يبدأ بالسنة الاولى لحياة الطفل حين يبكي الطفل ولا يستطيع المربي احتمال بكاء طفله فيلبي رغبة الطفل ليكسب هدوءه. ويستمر مبدأ التنازل حين يكون الطفل في جيل سنتين وثلاث وأربع فيهدد حينها ليس فقط بالبكاء بل ايضا بالتخريب او بالهروب او بضرب أخيه الرضيع. حين يترسخ هذا النهج ويصبح جزءا من علاقة الطفل مع المربي فيستمر عبر السنين، ليصبح الطفل يهدد بعدم الذهاب للمدرسة او عدم حل الوظائف البيتية، او عدم النجاح

بالدراسة . الحد هنا يجب أن يكون واضحًا وصارمًا في ان مبدأ التهديد غير وارد، وان الخضوع للطفل تجنبا للمشاكل التي قد يسببها هو امر مستبعد . جميع الأطفال جربوا تفعيل هذا النهج اتجاه مربيهم ورد فعل المربي هو الذي يحدد اذا ما كان هذا النهج سيستمر ليكون نمطا في التعامل ام انه يصر على رفضه بشكل قاطع .

اذكر ان احدى بناتي وهي في النصف الثاني من السنة الثانية لعمرها انتقلت لتنام على تختها في غرفة منفصلة وبكت واصرت على الرجوع لغرفة الام والاب وكل مرة نزلت عن التخت ارجعتها، بدون عنف لكن بحزم ونزلت وارجعتها، وانا مصر في قرارة نفسي انني لن اتراجع مهما طالت هذه العملية، وفعلا استمر نزولها وارجاعي لها حوالي نصف ساعة حتى اعياها التعب فنامت . وفي الليلة التالية استمرت العملية ربع ساعة وفي الليلة الرابعة ذهبت للنوم بسريرها بكل هدوء .

هناك أهالي يشكون بانهم لا يستطيعون سماع طفلهم يبكي، لهذا هم على استعداد لعمل أي شيء من أجل تجنب بكائه . المربي الذي لا يحتمل بكاء طفله عليه ان يفحص ذاته ويعمل مجهودًا للتغلب على هذه الصعوبة في داخله . احتمال البكاء يحتاج لصمود وطولة بال . ربما علينا ان نتذكر ان في مثل هذه المواقف هدفنا ليس تعذيب الطفل بل خدمته، وفي احتمال بكائه هناك عطاء لا يثمن .

الثبات والاستمرارية في وضع الحدود للطفل هما الضمان لتذويت هذه الحدود في شخصية الطفل، بحيث انه يبدأ يشعر فيما بعد ان الحدود ليست خارجية واصبحت داخلية من ذاته ويستعملها حينها كأداه داخلية تلقائية غير متعلقة بحضور المربي جسميا . يجعل الكثير من المربين الضوابط على سلوك الطفل ترتبط بمزاجهم؛ أي اذا كان المربي سعيدا يسمح للطفل بعمل التصرف المحدد وان كان غضبان فيمنعه او يضربه للتصرف ذاته . المزاجية في وضع الحدود تشكل عائقًا جديا امام ترسيخ هذه الحدود في نفسية الطفل . لكن البعد الاهم هو البلبلة التي يسببها هذا النمط من التعامل في نفسية الطفل، حيث يصبح لا يدري وغير قادر على تنبؤ رد فعل المربي حيث ان تجربة الطفل كانت انه ضرب وكوفئ على نفس التصرف وتحت نفس الظروف، فكيف يستطيع توقع التجربة القادمة؟ وكيف له ان يحزر مزاج امه او ابيه؟ من الواضح ان رد فعل المربي من ناحية رفضه او قبوله لتصرف الطفل يجب ان يعتمد فقط على ابعاد هذا التصرف وملاءمته للظروف .

الحقيقة ان الثبات والاستمرارية قائمان على مستويين . المستوى الأول والذي حاولت توضيحه اعلاه يتعلق بثبات المربي واستمراريته في الحدود التي يضعها للطفل . المستوى الآخر هو الثبات والاستمرارية بين المربين المختلفين وبالدرجة الاولى بين الاب والام . بدون الاطالة في الشرح اظن انه من الواضح ان الحدود تصبح متينة حين يتفق الاب والام على موقف واضح ومحدد . التناقض المتكرر بينهم يشوش الطفل ويدفعه لاستعمال الحيل والتي توقع الاب والام في خلاف مستمر . طبعًا المربي الثالث في محيط الطفل هو المعلم واذا وجد الطفل ان الحدود التي وضعت بوضوح وحزم في بيته، يوجد لها امتداد في مدرسته فذلك يرسخ الحدود أكثر في ذاته، ويؤمن حينها بقناعة تامة ان هذه الحدود ايجابية ما دام جميع الكبار الذين يحبونه يؤيدونها باتفاق . ما أقول لا يعني بالطبع ان لا تكون هناك اختلافات في الآراء والمواقف، وما دام هذا هو

الواقع الانساني فيجب ان يكون الطفل جزءا من هذا الواقع . لا حاجة للتمثيل أمام الطفل بأن الاب والام متفقان مئه بالمئه على كل شيء ولو أرادا التمثيل سيفشلان وتفضح الامور . في أي موقف يلمس الطفل التناقض بين رأي الاب والام ويعبر عن ذلك ، يجب التأكيد على أن ما يدركه ويحسه هو صحيح . فنقول للطفل نعم لي ولامك رأي مختلف هنا . ونشرح له رأي وموقف الاب وموقف الام المختلف والمنطق الكامن خلف كل رأي ، ومن الصحي ان يدرك ان اختلاف الآراء والمواقف لا يقتل الحب ولا يمنع العيش المشترك ، بل ربما يجعل الحياة ذات الوان اكثر وغنى اوفر .

العطاء والحدود امران لا يتناقضان ، فمن اجل ان يقبل الطفل حدود المربي يجب ان يكون مقتنعًا في داخله ان المربي يحبه ولجانب "اللا" هناك الكثير من "النعم" في امور عديدة . في هذه الظروف يشعر الطفل ان "اللا" او المنع يهدف الحرص وليس الحرمان ، من يضع الحدود بدافع الاهتمام والعناية "Caring" ومن يحترم الطفل بحق ، وينصت لضائقته وآلامه هو الذي يملك القوة على وضع الحدود للطفل .

المربي القادر على وضع الحدود هو المربي الذي رافق الطفل منذ صغره ، وكان شريكا له في حيثيات حياته اليومية ، وضحى من وقته واعطى من جهده وساهم في دعم الطفل بالمواقف المختلفة واليومية التي يمر بها . الوالد الذي كان شريكا للطفل في تجاربه اليومية منذ صغره هو صاحب السلطة في وضع الحدود . يشعر الطفل بداخله ان لوالده الحق في وضع الحد والوالد يشعر ان له الحق في وضع الحد . والوالد الذي يعود لابنه او ابنته ليضع الحد بعد غياب طويل ، سوف يفشل ، لان الوالد يشعر والابن يشعر ان لا حق للوالد في ممارسة سلطته ما دام لم يكن شريكا . الكثير من الخلافات بين الاب والابن او الابنة المراهقة مصدرها هذا العنصر . يستشيط الاب غضبا ان ابنته المراهقة تعمل خلاف رأيه وأحيانا في امور مشحونة تتعلق بالحب والجنس ، ولا يتوفر المخرج ، وتتأزم الامور وفي تاريخ القضية يكمن عنصر غياب ذلك الاب من حياة ابنته أمر سلبه السلطة واوقفه ضعيفًا امامها . في داخلها تقول له أين كنت حتى الآن؟ وبأي حق تطلب مني ما تطلب؟

لجانب الحب والاهتمام والاحترام يجب ان تكون الحدود واضحة وقوية وحازمه . يجب ان يشعر الطفل والمراهق في البيت وفي المدرسة ان هناك سلطة تحميه وتضع له الحدود . فلا خطر ان يتعدى عليه احد ولا خطر ان يؤذي هو احدا . اذكر ما حدث في جناح اعد للمراهقين (Adolescents) في مستشفى للامراض النفسية في سانفرنسيسكو ، المستشفى الذي تدربتُ به اثناء دراستي للدكتوراه . دخل القسم شاب طويل في السابعة عشرة من عمره عضلاته مفتوله ، وملامح وجهه تشع غضبًا ونقمة . خلال ساعات قليلة دب الرعب في قلوب المرضى وغالبيتهم من الشباب الصغار وحتى دب الرعب في قلوب الطاقم المعالج . كان هذا الشاب مخيفًا في تعابير وجهه وحركاته وسرعان ما وجد له هذا الخوف علة حيث هاجم شابًا آخرًا واعتدى عليه بالضرب ومرة أخرى ضرب رأسه بالحائط حتى تفجر الدم من رأسه . اذكر ان رئيس القسم آنذاك جمع الطاقم المعالج وقال بوضوح ان ما يلزم هذا الشاب حدود واضحة وحازمه وعلى الجميع ان يتجند لهذه المهمة . وقال اذا نجح هذا الشاب في إخافة من حوله فسوف نفشل في علاجه ، لأن هذا الوضع سوف يخيفه

أكثر ويجعله يفقد السيطرة على عنفه أكثر .

فعلا حرص المستشفى على ابقاء اربعة رجال في القسم من الممرضين والحرس المدرب على مدار أربعة وعشرين ساعة . وفي كل مرة فقد هذا المريض السيطرة وحاول ايذاء نفسه او غيره تم ضبطه بسرعة وربطه في سرير اعدّ لهذا الغرض في غرفة منعزلة ، ليهدأ وتمت مراقبته حتى هدأ ثم أعيد للقسم مرة أخرى . كان هناك حرص على عدم ايذائه ومحاولة ضبطه والسيطرة على عنفه بشكل غير عنيف . حيث تكلموا معه بشكل مستمر أثناء السيطرة عليه وضبطه في السرير المتنقل وربط يديه ورجليه . فحوى الحديث معه كان بأننا لا نهدف لإيذائك ، فقط نريدك ان تهدأ ، حاول ان تهدأ . . وما الى ذلك " .

هذه التجربة لها مدلولات هامة ، رغم انها مورست مع مريض صعب في مستشفى للامراض النفسية ، الا ان المبدأ صحيح بالنسبة لأي طفل او مراهق . الضوابط والحدود والحزم في تطبيقها ضروري لخلق شعور بالهدوء والطمأنينة . فاتني ان اذكر بان لجانب الحدود التي تم تطبيقها بقوة وحزم توفرت للشاب المذكور جلسات علاجية فردية وجماعية حيث من خلالها بذل الجهد المهني الجاد لفهم ما مرّ عليه من تجارب وازمات في حياته ، وكذلك كانت محاولة جباره للتعاطف مع المحن التي واجهته منذ ولادته . وحقيقة لا دخان بلا نار ، وفي هذه الحالة كما هو في كل الحالات ، لم يأت العنف من فراغ فهذا الشاب منذ طفولته المبكرة تركته امه وعاش مع أبيه الذي كان قاسيا أشد القسوة اتجاهه حتى أنه كواه بواسطة المكوى في اجزاء مختلفة من جسمه كوسيلة للعقاب ، وآثار هذا الكوي كانت واضحة على جسمه .

أهم الادوات في التواصل الانساني هي اداة الحوار . يخدم النقاش عدة أهداف فلجانب كونه وسيلة لتصحيح الخلاف وايجاد المخارج من مواقف الصراع فهو اداة لوضع الحدود ايضاً . الكلام والحوار يجب ان يرافق عملية وضع الحدود حتى حين تستعمل وسائل اخرى مثل ابعاد الطفل لغرفته حتى يهدأ او في الحالة التي نضبط بها الطفل بالقوة ، كما حصل في حالة الشاب المراهق بالمستشفى . عندما نضع الحد يجب ان نوضح الأسباب بشكل كلامي ، وبعد ان نفرض رأينا وارادتنا ، يجب نقاش ما حصل واعطاء الفرصة للطفل للتعبير عن مشاعره وربما غضبه . يجب ان ندرك ان التعبير الكلامي عن الغضب أمر شرعي جدًا ، نحن نحدد بسلطتنا السلوك او العمل ، لكن التعبير الكلامي عن الرأي والمشاعر هو أمر شرعي جدًا ، فمسموح للطفل الاحتجاج على الحد الذي فرضناه ومسموح ان يغضب لكن مشاعره ليس بالضرورة تغير القرار ما دام هناك اعتبارات منطقية للحد الذي فرضناه . منطقية الحد تكمن في كونه يحوي الحماية والرعاية للطفل . الحقيقة ان الحوار هو البديل للعنف فحين يسكت الحوار يبدأ العنف ، وحين تتوقف المفاوضات تشتغل المدافع والصواريخ .

هناك عامل آخر في غاية الاهمية ، يتعلق بوضع الحدود للطفل ، وقد يكون هذا الامر ليس سهلا في التطبيق والممارسة ، واقصد هنا فهم ما وراء السلوك الظاهر عند الطفل . يتعامل الكثير من المربين مع السلوك الظاهر ، ولا يجربون طريق لفهم ما يعبر عنه هذا السلوك . عملية فهم ما وراء ليست سهلة وقد تحتاج احيانا لفهم مهني غالبا ما توفره الاستشارة النفسية او العلاج النفسي . يخطر ببالي حدث حصل عندما كانت

احدى بناتي في جيل الخامسة . ذهبت مع زوجتي لايام دراسية حاضرت فيها وغبنا ليلة عن البيت، وحين عدنا كبقية الاهالي متشوقين لاطفالنا وواثقين انهم متشوقون لنا بالمثل . وبعد وصولنا بوقت قصير بدأت ابنتي تتصرف بشكل يثير الغضب حيث انها القت بالملعقة على الارض، واحتجت على نوع الأكل، وضايقت اختها بدون سبب واضح، وعملت كل شيء تعلم انه لا يرضينا . عندما زادت حدة مضايقتها فرضنا عليها الذهاب لغرفتها حتى تهدأ وحين رجعت كانت محادثة طويلة معها ومع اختها حول شعورهما خلال غيابنا، وغضبهما علينا بأنا تركناهما بالبيت (رغم وجود من كان يرعاهما بالطبع) . بعد ان عبرت عن مشاعرها وغضبها بشكل كلامي عادت هادئة جدا . الانتقال السريع بين حالة "النكد" لحالة الهدوء اثار استغرابي، وجعلني أومن أكثر بقوة الكلمة، وأهمية الحوار، واثر رؤية ما وراء السلوك الظاهر .

الحدود والفروقات بين الاطفال

يلفت الانتباه انه في العديد من العائلات يفرض الاهل الحدود على اطفالهم بشكل غير متساوي . اعتبارات الاهل تكون احيانا في وعيهم الكامل واحيانا عديدة يمارسونها بدون وعي وتخطيط مسبق . الحدود التي يفرضها الاهل على الذكور تختلف احيانا كثيرة عن الحدود التي يفرضونها على البنات في العائلة . الرسالة التي تنقل للطفل الذكر مثلا هي انه يجب ان يكون قويا في جسمه وكثيرا ما يلاقي تصرفه العنيف تسامح او تشجيع، بناء على فكرة انه يجب ان يكون قويا "ليخلص حقه" ، اما العنف الجسمي للبنت فهو مرفوض . العواطف والبكاء مسموحة للبنت لكن غير مسموح للذكر . ويعايرونه احيانا كثيرة اذا بكى فيقولون له انه يبكي "مثل البنات" . دراسة وتحصيل الذكر مركزية اكثر من دراسة وتحصيل البنت . اكثر المجالات التي يظهر بها التمييز هو مجال الجنس، فجنسية الذكر مباحة وبطريقة غير مباشرة تلقى التشجيع بينما جنسية الانثى محرمة وتقع عليها الحدود الصارمة . الاختلاف في وضع الحدود بما يتعلق بالجنس لا تبدأ بجيل المراهقة، وانما في اول سنتين من حياة الطفل ويظهر ذلك بالسماح للذكر ان يتجول عاريا وللبنت غير مسموح . احيانا يتغزل الاهل بعضوه الذكري، بينما لا يذكرون بتاتا العضو الجنسي للبنت . قائمة الامثلة طويلة واظن ان لا حاجة للبرهان .

التفرقة في الحدود بين الذكور والاناث تتعلق بالرؤيا الثقافية والمجتمعيه لشخصية الطفل والطفلة والدور المتوقع لهم بالمجتمع، كون الجذور التربوية مستمدة من الجذور الثقافية قديمة العهد .

برأيي الفرق في الحدود يتطلب اعادة نظر ووعي أكثر . المخاطر التي تنتظر الذكور والاناث في الحياة قد تكون متساوية والتحديات لنجاحهم متوازية . الذكور في خطر المخدرات والانحراف والمشاكل السلوكية المعقدة، لذلك الفكرة ان لا خوف على "الرجال" هي فكرة خاطئة . تحديات الابن والبنت للنمو السليم وليصبحوا اعضاء فعالين بالحياة بقناعة ومتعة هي تحديات مشابهة . اعرف الكثير من العائلات التي بعد ان كبر أبناؤها ادركت ان مشكلة الابن الذكر اصبحت صعبة لدرجة انها تسلب العائلة نومها ومتعتها واستقرارها، وبالذات البنات فيها تشكل مصدرا للطمأنينة والنجاح .

أهمية الحدود لا تفرق بين الذكور والاناث لانها مهمة للنمو السليم والتأقلم الجيد. بنفس منطق الفيزيولوجيا، الفيتامينات مهمة للجسم ولا فرق في ذلك بين جسم الذكر والانثى. اذا كان هناك حاجة للحدود فيجب وضعها بغض النظر عن جنس الطفل.

ظاهرة اخرى شائعة وهي التهاون في وضع الحدود حين يكون الطفل وحيدا لاهله او حين يكون ذكرا بين عدة بنات في العائلة. في هذه الحالات الخطورة متزايدة للطفل الذي يجد نفسه في موقع الحماية الزائدة من طرف الاهل. في كل مرة لا يستطيع الاهل انجاب أكثر من طفل او ينجبون الذكر الاول بعد ست او سبع بنات، أشعر بالقلق على مستقبل ذلك الطفل، بسبب العواقب التي ستنجم عن غياب الحدود والضوابط.

مرة اخرى يتعامل الأهل والمربون مع الطفل بنوايا حسنة، لكن النوايا وحدها لا تكفي، فهم حاجات الطفل الاساسية والتجاوب مع هذه الحاجات هو أسلم طريق.

الضوابط والحدود في اطار المدرسة

الحقيقة ان المبادئ التي تسري على اطار العائلة، صحيحة ايضا بما يتعلق باطار المدرسة. للاستمرارية والثبات في وضع الحدود، أهمية بالغة في صقل شخصية سليمة للطفل. فان وجد الطفل ان المبادئ السلوكية الممارسة في بيته تتشابه وتتلاءم مع المبادىء الممارسة في مدرسته يشعر بالثبات مما يساهم في تكوين حدود وضوابط ثابتة وقوية في شخصيته. والعكس صحيح، حين يفتقد الطفل الثبات والاستمرارية بحيث ان القوانين السلوكية السارية في العائلة تتناقض مع الاسس المعمول بها في مدرسته يشعر بالتناقض والتشتت، مما يتطلب وقتاً اطول وعناء أشد لتكوين القدرة الداخلية على الانصياع للضوابط.

المدرسون كالاهالي يمرون بمرحلة تتميز بالعجز بما يتعلق بضبط الطفل. فالطرق التي مورست حين كان المعلمون طلابا تختلف عن الاساليب المطلوب اتباعها اليوم، والمثال الواضح لذلك هو استعمال عقاب الضرب الجسدي كوسيلة للضبط. في الماضي لام الاهل المعلم ان لم يضرب وربما اعتبروه غير مكترث او غير مهتم في تربية و«تأديب» اطفالهم. وكلمة "تأديب" او "تهذيب" جاءت لتعني جعل الطفل انساناً مؤدبا او مهذبا. اليوم المعلم مهدد بالطرد من عمله ان استعمل العصا. تجريد المعلم من العصا وعدم منحه ادوات بديلة يستعملها للضبط أمر يزيد من احساسه بالعجز والحيرة والاحباط. ربما يكون وضعه اشبه بوضع الراعي بدون عصا.

صحيح ان العصا اداة ملموسة من الاسهل فهم مهمتها واتقان استعمالها والاصعب هو تطوير واستعمال مهارات غير ملموسة مثل الحزم "Assertiveness" والاصرار والثبات والاستمرارية في وضع الحدود. الحزم هو اداة مجردة "Abstract" ومن الصعب تعليمها، كمهارة وربما تميل اكثر لان تكون صفة بالشخصية ننميها بالطفل منذ صغره فيكبر معها ليصبح انسانا حازما وان اختار التدريس كمهنة فيصبح مدرسًا حازما. من هذا المنطلق انا ادّعي ان الحزم هي مهارة هامه يجب ان تتوفر عند المدرس كاداة مكمله لمهارة او لقدرة المدرس على منح الحب والعاطفة.

كلنا يعرف ان نجاح المعلم لا يقاس في مدى معرفته العلمية وسيطرته على المادة التي يدرسها فقط.

تجربتنا في صغرنا علمتنا ان المعلم الذي استطاع ان ينقل لنا علمه هو ذلك المعلم الذي كان حازما بدرجة كافية ليفرض نظمًا في الصف من خلالها استطعنا ان ننصت ونحاور ونتعلم.

هل الحزم يحتاج للعصا؟ هل بامكان المعلم ان يكون حازما بشخصيته فقط بدون عوامل مساعدة؟ الاجابة هي نعم، ونحن نعرف ذلك ايضا من تجاربنا عبر السنين. هل الحزم يعني ان نفتقر للحب والعاطفة؟ طبعا لا، فالقرب العاطفي هو افضل الطرق للتأثير على الغير بالذات حين يكون واضحا ان القرب والحب لا يمنح استجداء ولا يعطي لتطيب خاطر ولا وسيلة لشراء السكوت من الاطفال. وانما كتعبير عن القرب والاحترام الذي تمنحه لنأخذ مثله. تحترم الطالب وتطلب بوضوح ان يرد الاحترام بالاحترام والقرب بالقرب.

الحرمان حين استعمل كاداة لوضع الحدود لم ينجح في اطار المدرسة ايضا. المعلم الذي يهدد الطلاب بان يحرمهم البقاء بالصف كاداة للعقاب لم يفلح، والمعلم الذي حرم الطلاب من الحصص والفعاليات الترفيهية لم ينجح ايضا، وبالطبع المعلم الذي استعمل العلامات كوسيلة للحرمان لم ينجح بتاتا.

يجب ان نعترف ان هناك فئة من المعلمين، ذكاؤهم الذهني وتفوقهم العلمي لا يسعفهم في وضع الحدود والضوابط لطلابهم بالصف، هؤلاء يفتقرون لاداة مهمة في مهنة التعليم، اشك ان بدونها يستطيعون القيام بوظيفتهم التربوية، وقد يستخلص بعضهم هذه النتيجة ولا مانع ان يغيروا مهنتهم، بالذات اذا حاولوا وفشلوا في تطوير مهارة الحزم والضبط ووضع الحدود.

لا مانع ان نغير مهنة، ندرك انها لا تتناسب مع مقومات ومعطيات شخصيتنا. فالمحامي الذي يرتبك حين يتحدث علنا بمجموعة يجب ان يستخلص العبر بالذات إن أدرك أنه لا أمل في تغيير هذه الصفة، فهذا الأمر صحيح بالنسبة لعديد من المهن الاخرى.

لا أقصد هنا دعوة جمهور المعلمين للتشاؤم والانسحاب، وانما اطمح بنقل الرسالة ان الحزم هو اداة هامة في فرض الضبط الذي بدونه يصعب اداء مهنة التدريس الجماعي. والرسالة الاخرى ان لا مانع ان نعترف بمحدودية قدراتنا احيانا واستخلاص العبر المناسبة.

المراجع

Bandura, A., Mcdonald, F.J. (1963). "Influence of social reinforcement and the behavior of models in shaping children's moral judgments". **Journal of Abnormal and social psychology**, 67, 274-281.

Bixler, R., (1964). "Limits are therapy". In Haworth, M,. (ed). **child psychotherapy**. Basic Books, Inc. Publishers, New yourk.

Rogers, C., (1961). **On becoming a person**. Houghton mifflin compang, Boston. pp. 3 - 59.